الإصـــلاح الدينـــي
والقرن السابع عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

تشكل فترة الإصلاح الديني حلقة في تاريخ المكتبات، ففي هذه الحقبة أخذ كثير من مكتبات العصور الوسطى يختفي ويحل محله مكتبات جديدة بأعداد كبيرة. وعند انحلال الأديرة الألمانية والمؤسسات الدينية، كان مصير مجموعات الكتب التي جمعها الناس بحماس بالغ، الإهمال والضياع مثل الأدب البابوي وعجلت الحركات الثورية مثل حرب الفلاحين (١٥٢٤ – ١٥٢٥) بحلول الخراب، فمن الشمال من ثورنجيا Thuringia إلى الوسط في مين Main إلى أودنوالد Odenwald والغابات السوداء في سويسرا حل الخراب بالمكتبات الكنسية وتجشمت خسائر فادحة، وخرب بعضها عن آخره كما حدث في راينها ردسبرون Reinhardsprunn ونفس الشيء حدث خارجاً ألمانيا، ففي فرنسا حل الخراب بالمكتبات خلال حروب – الهاج Huguenot، ففي سنة ١٥٦٢ على سبيل المثال نهب جنوب كنديه Candè كنوز مكتبة فيلري سيرلوار Fleury - Sur Loire - أما الحالة في انجلترا فكانت أسوأ ، ففي خلال الثلاثين سنة التي اصطبغ فيها حوالى ثمانمائة دير وأبرشية بالصبغة العلمانية بقيت مجموعات من الكتب في إهمال شديد، وفي سنة ١٥٥٠ ذهب مبعوثو ادوارد السادس إلى أكسفورد وجردوا المكتبة من كل شيء حتى الأثاث باعوه هملا وسقطا.

وإذا كان لنا ألا نصمت على الأثر التخريبي الذي أحدثته حركة الإصلاح الديني فإن من الواجب أيضاً أن نركز على الدور البنّاء الذي أحدثته في هذا المجال : ففي البيان الدوري للوثر في عام ١٥٢٤ « إلى عمداء ورجال بلدية كل مدن ألمانيا »[١]، نصادف هذه العبارة الهامة «وأخيراً يجب أن نأخذ في الاعتبار ألا ندخر وسعاً في إقامة مكتبات طيبة في المباني المناسبة وخاصة في المدن الكبيرة التي تستطيع أن تحافظ على بقائها » وعمل ميلانكتن Melancthon «معلم ألمانيا » ما استطاع لتحقيق هذا الهدف . ويمكننا بتتبع الأعمال التي تلت هذا البيان في المقاطعات الألمانية إدراك أن المسألة لم تكن مسألة كلمات وخطب . ويكفي أن نستعيد في ذهننا النشاط الخلاق الذي قام به جون بوجنهاجن John Bugenhagen في كل شمال ألمانيا ، فقد

---

(١) وقد ترجم في الفصل السابع من :

An die Rotherren aller Stadte deutsches Lands F.V.N. painter, s Lunther on education, Phi-ladedelphia 1890.

جمع ما أمكن جمعه من مجموعات الكتب التي كانت تملكها المعاهد الكاثوليكية لتصبح نواة لمكتبات المعاهد التي تم إنشاؤها في ذلك الوقت.

وبهذه الطريقة انشئت إلى جانب مكتبات البلديات التي وجدت منذ القرن الخامس عشر مكتبات جديدة كما في هامبررج ونورمبرج وأوجزبرج، ولن نذكر شيئاً عن مكتبات الكنائس التي قامت لخدمة نفس الأغراض كما في بريمن Bremen وهالي Halle، وفي كثير من الأماكن انتقلت الكتب من أيدي الكاثوليك إلى البروتستانت دون أدنى تغيير. يضاف إلى هذه الأنواع من المكتبات مكتبات المدارس التي بدأت تظهر إلى حيز الوجود، وأبرز مثال على ذلك ما وجد منها في ساكسونيا، ولما انشئت الجامعات في هذا الوقت أيضا في كونغربرج ، هيلمزدت ، جيبا وماربرج وكذاليدن، اقتنت مجموعات الكتب التي احتاجت إليها ، ومن أهم تلك المكتبات كانت مكتبات جامعة ليبزج. وفي الأقاليم الكاثوليكية اتخذت إعادة بناء المكتبات أداة من أدوات الإصلاح الكبرى. وفي هذا الميدان بذل الجزويت وخاصة كانيسيوس Canisius قصارى جهدهم إلا أن المصادر التي تحت أيدينا حتى الآن تقصر عن كشف الدور الحقيقي الذي قاموا به (١).

كل هذه المكتبات يمكن اعتبارها مكتبات عامة، ولكنها لا تملك نظم الترتيب التي اعتدنا عليها في مثل هذه المؤسسات العامة، فالتردد عليها كالعادة كان مقصوراً على فئة متميزة، ولم تكن الإدارة والتنظيم الداخلي يخضعان لقواعد ثابتة، وكان نمو المجموعة يترك للصدفة إلى حد كبير، واعتمدت على أريحية المتبرعين الكرام. وبالطبع أدى اختراع جوتنبرج إلى زيادة هائلة نسبيا في عدد الكتب التي تدخل إلى المكتبات عقدا بعد عقد ولكن إدراك المكتبات للواجبات التى ألقيت على عاتقها نتيجة لهذا الاختراع لم يظهر إلا متأخراً، وأكثر من هذا فإن حاجة الناس في ذلك الوقت إلى مكتبات عامة يسهل استعمالها، قد سدها ذلك الفيض الهائل من المكتبات الخاصة.

وفي إحدى حوليات مدينة ميزن Meissen نقرأ « لقد أصبح حقا لكل النبلاء وأبناء الطبقة المتوسطة، حتى ولو لم يكونوا دارسين حقا، أن يقرءوا و يجمعوا في منازلهم مكتبات طيبة تجمع مختلف أنواع الكتب الدينية، وأن يجتذبوا إلى بيوتهم أحسن المؤرخين وأفضل الأطباء وغيرهم». ومما لا شك فيه أن عدد محبي الكتب من بين النبلاء في المدن الألمانية قد ازدار عن الفترة التي سبقت وسوف يعنينا هنا أن نذكر منهم اثنين ينتميان إلى أسرة فوجر Fugger

(١) آخيراً أمدنا جيمس برودريك بتقرير مفصل عن هذه النشاطات حيث يشتمل الفصل الاخير في كتابه التالي انجازات كانيسيوس في مجال التربية انظر:

James Brodrick = St: peter Cansisius London, 1935.

لقد انتشرت هواية جمع الكتب حتى بين أصحاب الحرف، ومما يدل على أنها قد أصبحت ظاهرة عادية، المجموعة ذات المؤلفات نصف العملية التي جمعها هانزساكس Hans Sacks ، ولقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعض الأسر النبيلة التي زادت مكتباتها على عدة آلاف من المجلدات. ويمكننا أن نلاحظ بوضوح كيف أن المناقشات الحامية التي أثارتها جماعة الإنسانيين حول مسائل الدين المعاصرة جعلت كثيراً من طبقات المجتمع تقبل على الكتب وتهتم بها.

وفي القرن السادس عشر أيضاً ، كان كثير من أمراء الأقاليم يدرسون في الجامعات وواصلوا اتصالاتهم العلمية أثناء حكمهم، وراعوا عند إنشاء مكتباتهم أن تتمشى مع فخامة بلاطهم، كما راعوا إمداد موظفيهم بكتب تتعلق بواجباتهم الإدارية. كما كانت بعض المجموعات تغلب عليها الميول الفردية للأمراء ، وفي أحيان أخرى كانت الاتجاهات العامة تتدخل في تشكيلها ، ومهما يكن من أمر فإنه في تلك الحقبة تكونت مجموعة من المكتبات تعتبر الآن من أعظم مكتبات ألمانيا أهمية.

ففي الثلاثينات – على سبيل المثال – أقام ألبرت دوق بروسيا في قلعته بمدينة كونجزبرج Konigsberg مكتبة عامة وأخرى خاصة كما أن يوليوس julius حاكم برونزويك وضع في عام ١٥٦٨ أساس المكتبة الشهيرة في وولفينبوتل Wolfen Buttel كما سبقهما إلى هذا الفضل أوجست حاكم ساكسونيا وأسس مكتبة درسدن Dres - den الشهيرة ، وتبعه في ذلك وليام حاكم هيس Hesse، وأسس مكتبة في كاسل Cassel، ومنذ أصبحت المطابع تخرج فيضاً من المطبوعات أصبحت الجلود – جلود الكتب – وحدها كمظهر الفخامة والرفاهية وإننا لنرى كيف استخدمت فخامة التجليد مظهرا من مظاهر المباهاة والمفاخرة، بصورة واضحة في المكتبة الفضية في كونجزبرج التي سبق الحديث عنها [١] . وكان التجليد بالجلد مع التذهيب هو الطريقة المفضلة عادة. وإن أجمل الأمثلة على ذلك تلك النماذج التي أخرجها لنا المجلدون في وتنبرج Wittenberg، والتي أخرجها لنا أيضاً الصناع بإشراف أوت هنريش Ott Heinrich.

ولهذا الأمير المنتخب أنشد الشاعر «في كل وقت أحب الحكمة والفن [٢] ومن أصدقائه الحميمين جريكست Gercist ومحب الكتب اللامع أو لرك فوجر Ulrich Fugger. لقد ورث هنريش عن أسلافه مجموعات من الكتب لا بأس بها ، وعمل على زيادتها بهمةلا تعرف الملل حتى وافاه

(١) اقتبست من Hans Rott Ist auch allzeit gewesen Weisheit und , `kunst geneigt Ott Heinrich und die Kunst Heidelberg, 1905. 173 (Mitteilungen zur Geschichte des. Heidelberger schlosses v, 2--1.

(٢) نرى صدق ما نقول في مجموعة الكتب المجلدة بالفضة والتي أتت بها أنا ماري الزوجة الثانية لألبرت دوق بروسيا.

الأجل في عام ١٥٥٩ ، وتشهد على ذلك الأديرة القديمة على طول الراين وخاصة دير لورك . لقد تخصص أوت هنريش في المخطوطات الألمانية، ولقد نهج خلفاؤه نهجه فأحرزوا تقدماً كبيراً في هذا الشأن ومن ثمرات ذلك مكتبة أولرك فوجر القيمة والتى استفادت كثيراً من مميزات ، أسواق الكتب بمدينة فرانكفورت ، ومما يعتبر أمراً غير عادي آنذاك هو أن التردد على هذه المكتبة كان مباحا، بل وكان يسمح للعلماء بتحرير المخطوطات بها . وبهذه الطريقة وحتى نكبة ١٦٢٣ اعتبرت مكتبة البلاتين في مقام أعظم مكتبات ألمانيا على الإطلاق ، ولعبت دور المركز العقلي لكل الجنوب الغربي .

ومهما يكن من أمر فلقد كان إنشاء المكتبات وتعضيدها مقصوراً كلية على الأمراء البروتستانت ، وليس أدل على هذه الحقيقة من مكتبة البلاط في فيينا والتي اشتملت في نهاية القرن السادس عشر على ٩٠٠٠ مجلد من بينها ١٦٠٠ مخطوطة، وكان يديرها بلوتيوس Blo-tins، وإن أحسن دليل على ذلك ما قام به ألبرت الخامس دوق بافريا ، فقد كان على النقيض من ابن عمه الأمير المنتخب لايمت بصلة وثيقة إلى الفنون والمعرفة، ولكنه كما أشيع أخيراً كان يحب المباهاة والمفاخرة فأقبل على تقليد الحكام الأخرين في تزيين بلاطه بإنشاء مكتبة فخمة. وبالتالي يرجع الفضل في إنشاء مكتبة ميونيخ إلى جون يعقوب فوجر johh jacob Fugger الذي سماه الإيطاليون « أغنى وأعلم رجل في ألمانيا il primo ricce, I pui dotto di Germania فهو الذي استغل مشاريع أسرته التجارية الكثيرة للحصول على المخطوطات اليونانية لنفسه، كما أنه اشترى أيضاً مكتبة اسكدل التي سبق ذكرها . ومن مكرماته أنه أغرى ألبرت في عام ١٥٥٨ على شراء مجموعات رجل السياسة المستشرق ويدمانزتتر Widmanstetter وكانت مجموعة نادرة، ولم تلبث مجموعته هو شخصيا أن آلت إلى حوزة الدوق، ونقلت المجموعة التي بلغت ما يقرب من ١١ ألفاً من المجلدات إلى ملحق أنشيء خصيصاً تحت حكم ماكسيمليان الأول الذي وضع بنفسه تعليمات إدارة المكتبة، وفي سنة ١٦٠٢ أمر بنشر فهرس المخطوطات اليونانية ، وقد سن التشريع الذي استفادت منه مكتبة فيينا لفترة طويلة.

ويمكننا لأول وهلة أن نلاحظ ميل الدوق ألبرت إلى الفخامة والمباهاة، ولكن ذلك جزئياً فيما يختص بالأشياء الثمينة والنادرة ذلك الميل الذي تفشى بين الطبقة الأرستقراطية في أوج عصر النهضة ونما أكثر وأكثر حتى أصبح من أخص خصائص الأجيال التي تلت. فقد جرت عادة الأمراء في وقت مبكر على أن تكون ببلاطهم خزانة مملوءة بالقطع الفنية، وتلحق بالمكتبة خزانة الكتب النادرة، ولقد نصت لائحة المتاحف والمكتبات Musei sive bibliothecea لسنة ١٦٣٥ على أنه من المرغوب فيه أن تجمع معاً في صالة المكتبة « بعض الأشياء التي تشبع حب الاستطلاع

عند الرجل المتعلم مثل الآلات الرياضية، والمسكوكات، وقطع الآثار الخفيفة، وأيضاً غرائب الطبيعة والفن »(١).

وصفوة القول ان المانيا في القرن السادس عشر كانت متشبعة بالكتب. وفي هذا الوقت كان المركز العالمي لتجارة الكتب يقع في المانيا كما كان فهرس سوق كتب فرانكفورت Frankurter me s sk at alog يمثل حصراً كاملاً للآداب الاوروبية، وأخيراً قام الألماني الطبيب والعالم كونراد جزنر Conrad Ge sner في عام ١٥٤٥ بعمل البيليوجرافيا العالمية Bibiotheca Univer-salis(٢). ومع ذلك فقد انكر على المانيا أن تبقى رائدة في هذا المجال، فإن الانحلال العام ثم الكارثة المخيفة التي تمثلت في حرب الثلاثين جعلت ألمانيا تتخلى عن زعامتها للقوى العظمى التي ولدت في الغرب. ومن هنا يتضح أن أهم وأعظم مجموعات القرن السابع عشر قد وجدت خارج ألمانيا . كما انه في هذه البلاد الأخرى ظهر نوع جديد من المكتبات يمكننا ان نطلق عليه اسم المكتبة العجيبة.

ففي الفصل السابق رأينا كيف أن عصر النهضة اتبع نفس طريقة ترتيب الكتب التي كانت سائدة في العصور الوسطى ، وهي الطريقة التي تمثلت بوضع الكتب مربوطة على الرفوف، وعلى أي حال كلما زاد إنتاج المطابع من الكتب زاد رصيد المكتبات من هذه المطبوعات، وازداد الشعور بقصور هذه الطريقة القديمة، وجاء الحل أولا من خلال طريقة جديدة فقد أصبحت الكتب توضع في صفوف في دواليب للكتب تمتد بطول الجدران، وعندما دعت الحاجة الى زيادة هذه الدواليب حتى السقف أدخلت «سندرات Galleries لتسهيل الوصول إلى الرفوف العليا ، وليست الحاجة فقط هي أم هذا التجديد، ولكنه أيضاً وليد ذوق ذلك العصر، ولما كان وسط القاعة يترك خالياً من الكتب فقد استغل لعرض الغريب والنادر، وبهذه الطريقة أخذت المكتبة أكثر وأكثر صفة حجرة العرض العجيبة.

وبقدر ما وصل إلى علمنا يكون أول من اخترع طريقة وضع الكتب على الرفوف الحائطية

---

(١) Nonulla quibus ingenua curiositas hommis eruditi delectari solet, tanquam proprio pastu animi liberalis, als da seien instrumenta mathematica. numismate antiquea, erudiqta rudera prisci temposis sowie quaedam naturea et artis miracula.. CF.C. Clement = Musei sive bibliothecae tam privatoe quam publicae extructio, insturction, cura usus. Lyon. 1635.376.

(٢) للحصول على معلومات أكثر عن جزنر وأعماله انظر:

T. Besterman = The Beginnings of systematic bibliography 2nd ed., London 1936.; Archer Taylor = Renaisance guides to books. Berkeley, 1945.

- وهما معا متفقان على أن البيليوجرافيا الحديثة تبدأ بجوهان تريتهايم (١٤٦٢ - ١٥١٦)

هذه هو هيرارا Herrera مهندس فيليب الثاني، المعماري العظيم .

ولقد شهدت السنوات ١٥٦٢ - ١٥٨٤ بناء الاسكوريال Escorial المظلم حيث عاش الملك نفسه راهباً في العلم. وتحت إشرافه الشخصي نمت المكتبة بسرعة خارقة للعادة، وقد جاء أغنى أجزائها إرثاً لرجل السياسة دي ميندوزا De Me ndoza وقد اتبع مونتانو Montano أمين المكتبة طريقة غير عادية في التصنيف : فقد قسم المجموعة أولا حسب اللغة ثم فصل المخطوطات عن المطبوعات ، ثم قسم كلا منها إلى ٦٤ قسماً موضوعياً.

ولم تتعرض المكتبة الملكية في فرنسا للإهمال تحت حكم خلفاء فرنسيس الأول، وإن كان هؤلاء الحكام قد أسرفوا في فخامة التجليد، ويرجع الفضل في ذلك إلى تقدم صناعة الكتاب في فرنسا، فإن مجلدي الملك كانوا من الكفاءة بحيث يشبعون فيه حبه للمباهاة والمفاخرة، ولقد زاد رصيد المخطوطات القيمة أولا عن طريق مجموعة كاترين المديتشي ثم عن طريق مجموعة كاردينال مدينة أمبواز اللتين سبق ذكرهما . كما اتخذت خطوة هامة بنقل المكتبة من فونتينبلو إلى باريس حيث وضعت تحت إدارة الأمين ريجولت Regault الذي أتم فهرسها الأول عام ١٦٢٢.

وعلى الرغم من التقدم الداخلي والخارجي بها فإن المكتبة الملكية قد حجبت تماماً عن الضوء أمام المكتبة التي أسسها الكاردينال مازارين Mazarin وهو رجل السياسة القوي الذي غمس نفسه بشكل غير عادي في شؤون العلم والفن، ووقف بجانبه جابرييل نوديه Gabriel Naudè الدارس العظيم، والمثل الأعلى للمكتبيين ، وكتابه «مشروع لبناء مكتبةAvis pour dresser une bibliothèque [١] الذي نشر عام ١٦٢٧ يتضمن برنامجا لمكتبة عالمية ، مجهزة بأهم الكتب في كل فروع المعرفة في لغاتها الأصلية وترجماتها بالإضافة إلى التعليقات عليها ، والمراجع. ولطالما حارب نوديه التعصب الذي كان سائداً للكتب النادرة منادياً بمساواة الأدب الحديث بالقديم، حتى لقد طالب بحفظ كتابات الهراطقة . وإن مجموعة من الكتب غير المصنفة لاتستحق في نظره أن تسمى مكتبة كما لا يستحق حشد من الرجال أن يسمى جيشاً. وإن أحسن تصنيف في نظره هو التصنيف الأكثر سهولة والأكثر طبيعيةlaplus facile ,la plus natuerlle الذي يبنى على الكليات ويحتوي على تقسيمات معقولة. وكل هذه الفروض بناها على فكرة أن

(١) هناك ترجمة انكليزية لهذا الكتاب قام بعنوان:
Instruction Concerning erecting of a library. London, 1661 reprinted Cambridge, 1903, See also J.V. Rice Gabriel Naude, 1600-1653, Baltir ore, 1939.

أي مجموعة من الكتب يجب ألا ترضي الميول الفردية لصاحبها فحسب، بل أيضاً تشبع احتياجات العامة.

وبعد أن دخل نوديه في خدمة مازارين في عام ١٦٤٢وجد الفرصة مواتية لتنفيذ برنامجه، وجاءته الهدايا من جميع الجهات، وكلف الجنرالات والدبلوماسيين في الخارج بجلب الكتب لها . وقام نوديه نفسه برحلات طويلة إلى انجلترا وألمانيا وإيطاليا لهذا الغرض. وفي النهاية تجمع ما يقرب من ٤٠ ألف كتاب جلدت تجليداً فاخراً بالجلد المراكشي، وختمت بماء الذهب بشعار الكاردينال، وبينما ظلت المكتبة الملكية مغلقة في وجه الناس فقد فتح مازارين مكتبته لكل الراغبين في دخولها بقصد الدرس والتحصيل ». ولكن هذه المكتبة الممتازة الجميلة، ثامن عجائب الدنيا – كما كان يسميها – وقعت فريسة حرب الفروند Fronde في بداية الخمسينات من القرن السابع عشر، واغتصاب هذه الكتب على هذا النحو استصرخ نوديه صرخة ألم، لأنه أحب عمل يده كما يحب الوالد ابنه الوحيد (١). ولما لم تجد شكواه المملوءة بالعاطفة والفخر معاً أذناً صاغية في البرلمان، ترك المكان الذي فجع فيه وغادر فرنسا ليخدم في بلاد أجنبية. وعندما استرد مازارين قوته وأخذ في استرداد مكتبته، مات نوديه وهو في طريقة إلى فرنسا.

ولكي نفهم طريقة ومنجزات نوديه على حقيقتها يجب أن نضع نصب أعيننا أن حياته قد ارتبطت بالنمو الجديد للمعرفة البشرية، كما يمثلها اسكاليجر Fxcalgerودي ثو Degthou وغروتيوس Grotius وهوبز Hoppes ، وجاليليو galileo وبيكون Baconثم ديكارت Descartes، وفي مثل هذه الفترة من السهل علينا أن نفهم لماذا ظهرت الرغبة، بين هؤلاء الذين جمعوا الكتب بقصد دراستها وبحثها، في إيجاد تنظيم منطقي وإدارة واعية لمجموعات من الكتب تعد بالآلاف وعشرات الآلاف لا بالمئات كما حدث سابقا ، وبالتالي ظهرت الحاجة الملحة إلى وجود مهنة أمين المكتبة المؤهل والمدرب عمليا، وهي الحاجة التي اشتدت في القرون التي تلت، وقد كان من حسن الحظ أن يلتقي مكتبي موهوب ببعض الأعوان المخلصين، وقد حدث فعلا أن استرشد نوديه بأمثلة ممتازة ، حدد منها بنفسه مكتبة بودلي Bodleian ومكتبة امبروز Ambrosian.

وأولى هاتين المكتبتين هي ثمرة العمل الكبير الذي قا مبه السير توماس بودلي Thomas Bodley الذي يعتبر مثالا لعصر الملكة اليزابيت في انكلترا ، وهو الشخص الذي امتزج فيه ذوق الناحية العملية بدراسة أنسية جيدة، ولقد تعلم بودلي وقام بالتدريس في اكسفورد. وعقد صلات وطيدة مع عدة بلاطات في القارة الأوروبية أثناء خدمته الدبلوماسية.

(١) See Gabriel Naudé = News from France, or description of the library of cardinal Mâzarin preceded by the surrender of the library. Chicago 1907, See also J.V. Rice op cit.

وكان يعتقد – كما كشفت سيرته الذاتيه – أنه في أحسن أيام حياته لايستطيع أن يقوم بعمل أحسن في اكسفورد من « أن يضع إمكانياته أمام باب المكتبة » بقصد إعادة تعمير المكتبة الجامعية التي كانت قد دمرت منذ عدة عقود مضت، ووضعها مرة أخرى لاستعمال الجمهور . وكان يعتقد أنه يملك الوسائل الضرورية – المنجزات العلمية والمبالغ الكافية والأصدقاء المخلصون، ووقت الفراغ المتصل – وبناء على ذلك قدم بودلي عام ١٥٨٩ طلبه إلى وكيل جامعة اكسفورد ، وبعد خمس سنوات من العمل – الذي لم ينفق عليه من ماله ولا جهده شيئا ، بل أتته المساعدات الفعالة من كل ناحية – كانت المكتبة قد عادت إلى سيرتها الأولى.

ونظراً للحماس البالغ والجهد المتواصل سميت المكتبة باسم مؤسسها بودلي الذي لم يخفت نشاطه عنها يوما. فقد استحث شركة الوراقة في لندن Stationer's Company على تقديم نسخ مجانية من كل كتاب تنشره إلى المكتبة، كما أوقف كل ممتلكاته على الجامعة، وتبعاً للائحة التى وضعها بودلي فإن المكتبة كانت تفتح خمس ساعات يوميا ، ومع ذلك فقد كان لطلبة الدراسات العليا وحدهم الحق في استخدامها، وكانت الكتب ترتب في أقسام كبيرة دون تفريغ. وظهر أول فهرس مطبوع لها في عام ١٦٠٥ والثاني في عام ١٦٢٠ وهو خير شاهد على هذا النمو الكبير لمجموعة الكتب بها، بحيث اتضح بعد وقت قصير قصور المبنى القديم عن استيعابها، وفي حياة بودلي أضيف جناح صغير إلى المبنى وفي السنة التي توفي فيها (١٦١٣) كان العمل قد بدأ في جناح أكبر كثيراً من هذا (١) . هذه الإضافات كانت لها «سندرات » بسلالم تؤدي إلى الصفوف العليا من رفوف المكتبة، وهو نفس النظام الذي كان قد أدخل من قبل في مكتبة إمرورز ، ويمكن الإشارة بصفة عامة إلى هذه المكتبة الأخيرة على أنها الصنو الكاثوليكي لما أنشأه بودلي.

لقد رسم لنا منزوني Manzoni في كتابه (lpromessisposi) The Betrothed صورة حية لكبير أساقفة ميلانو فيدر يغو بور وميو Federigo Berromeo الذي اقتفى أثر قريبه وسلفه ، كارلو Carlo. لقد كان بورومیو نفسه عالماً ومؤلفاً خصب الإنتاج، فقد كد في تأسيس دراسة الكاثوليكية الجديدة على أسس راسخة ، ورمى من وراء إنشاء مكتبته إلى خدمة هذا الغرض. وطالما أن المكتبة في نظرة ليست مجموعة من العقول الميتة ولكنها مركز لنشاط خلاق، فقد وضع مكتبته تحت تصرف كلية الأطباء College of Doctors ، وأنشأ مطبعة مخصوصة لمطبوعاتها، وألحق بها أكاديمية للفنون ذات مجموعة طيبة في موضوعات الفن، وفي السنوات ١٦٠٣ –

(١) See Trecentale Bodleianum;a memarial volume for the three hundreth anniversary of the public funceral of Sir Thomas Bodly. Oxford, 1913.

١٦٠٩ أقيم بناء خاص يلم شمل كل هذه الأشياء . واحتوت المكتبة الأمبروزية على آلاف المخطوطات والكتب من بينها ذخائر دير بوبيو Bobbio وامتازت في الشرقيات خاصة. وتقرر أن تفتح للجميع بقصد الدرس والتحصيل Omnibus studiorum Causa poteat.

وتشبه هذه المكتبة تلك المكتبة التي أنشأها روكا Rocca الأوغسطيني في روما في العقد الأول من القرن السابع عشر تحت اسم الإنجيليكية Anglica، ولم تقل هذه المكتبه أهمية عن مكتبة الفاتيكان في أوجهها في عصر النهضة بالرغم من أن هذه كانت مختلفة جدا مع الأساليب التي اتبعت أخيراً ، وبهذا يقول مونتين Mantaigne « لقد دخلت المكتبة بدون صعوبة، ويمكن لأي شخص أن يدخلها بنفس السهولة، ويأخذ ما شاء من مذكرات [١] »ولكن مونتين لم يشهد المبنى الفخم الذي بناه سكستوس الخامس (١٥٨٥ - ١٥٩٠) للمكتبة بواسطة فونتانا Fontana وكانت مكتبة الفاتيكان في هذه الفترة تحظى باهتمام من ناحية التنظيم والإدارة، فقد كان من بين مديريها المؤرخ الكنسي المشهور بارونيوس Baronius وفي ذلك الوقت قام الإخوة رينالدي Rainaldi بإعداد فهرس المخطوطات بالمكتبة.

لقد حققت مكتبة الفاتيكان في القرن السابع عشر سلسلة من الانتصارات والمكاسب نذكر منها المكاسب الثلاثة الأكثر أهمية : ففي عام ١٦٥٨ ضمت مكتبة أوربينو التي أسسها فردريك من مونتفلترو ، والتي سبق ذكرها إلى مكتبة الفاتيكان وبعد ذلك بحوالي ثلاثين عاما اشتريت كتب كريستينا Christina السويدية وضمت لمجموعات المكتبة ، تلك المرأة المثقفة المشهورة التي أفرد لها رانكي قسما في تاريخه الذي كتبه عن البابوات، فذكر أنها خلفت والدها جوستاف أدولف ولم تتوان عن جمع الكتب والمخطوطات طوال حياتها القلقة. وعند انتقالها إلى روما حملت معها كل هذه الذخائر ، أما ثالث المكاسب وهو الذي أحدث دويا في عالم الثقافة ، فهو ضم مكتبة البلاتين إليها. إذ حدث بعد غزو هيدلبرج بجيوش تللي Tilly إن قام ماكسمليان حاكم بافاريا بإهداء المكتبة إلى البابا في سنة ١٦٢٣ لأسباب معظمها سياسية ، ولقد تم نقل هذه المكتبة إلى نهر التيبر بمنتهى العناية والحرص. والجلود القديمة التي تمزقت قبل النقل استبدلت بجلود جديدة، وكتب بداخل كل مخطوط العبارة التالية : «أنا (المخطوط)من المكتبة التي أخذها ماكسمليان دوق بافاريا غنيمة من هيدلبرج المهزومة وأهداها تذكار انتصار إلى

(١) Je vis La bibliothéque sans nulle difficulté, chacun la voit enisin et en extrait ce qu'il veut.. Montaigen = Journal de voyage en Italie par la Suisse et L'Allemagne en 1580 et 1581, ed Maurice Rot. Paris, 1942. 114.

– وهناك عدة ترجمات انكليزية له.

غريغوري الخامس عشر [1] ».

ولقد تعرضت أعمال الدوق هذه لانتقادات مريرة، وفي الواقع لايستطيع المؤرخ أن يقحمها في زمرة الأعمال السيئة، فتاريخ المكتبات من قيصر إلى نابليون يشير إلى أن المكتبات كانت تعتبر من بين غنائم الحرب القيمة، ولكن انتزاع ملكية مكتبة البلاتين لأسباب دينية يبدو لي أمرا خطيرا جدا كما لا يبرره أن بطل البروتستانتية ومنقذها جوستاف أدولف قد مارس مثل هذه الافعال على نطاق واسع في غزواته العديدة، فالمكتبات في كل مكان أخذت تنهب بهذه الطريقة واحدة بعد الأخرى، ومكتبات الجزويت بصفة خاصة تسترعي الانتباه. حدث هذا في سنة ١٦٢١ في ولايات البلطيق ، وبعدها بخمس سنوات في بروسيا . وفي سنة ١٦٣١ لاقت نفس المصير المكتبات في فيرزبرج، ايشفيلد، ماينز، ايرفورت، ريناو، وفي السنوات التالية في برسلو، بامبرج، ميونيخ. وبعد وفاة الملك السويدي نهج جنرالات السويد نهجه في حماس بالغ ، فانتهبوا المكتبات وخاصة في سليزيا، وبوهيميا، وموراڤيا. لقد اكتسبت أفعال جوستاف أدولف صفة الشرعية إذ استغل الغنائم التي جاء بها إلى بلده لأغراض ساميه، فقد بدت وسيلة لرفع المستوى التعليمي والتثقيفي في بلده ، وبالتالي فقد وزع الكتب والمخطوطات على مختلف الاماكن في السويد، وخص مكتبة الجامعة التي أنشئت في أبسالا Upsala سنة ١٦٢١ بأكبر نصيب من هذه الغنائم.

وفي كل هذا لعبت ألمانيا دور الخاسر المقاسي ، فقد جالت كلاب الحرب وصالت في مقاطعاتها طيلة عقود ثلاثة، وإن كانت المدن المحصنة المنيعة قد قاست أقل مما قاسى الريف المفتوح، فإن الإمحال الروحي والجدب الفكري قد ابتلعا كل البقاع في طول البلاد وعرضها ، ولم يكن تشتيت المكتبات وتخريبها هو أعظم خطب بليت به ألمانيا ، بل الأسوأ من ذلك فقدان كل صلة واحتكاك بالكتب سواء من جانب الأفراد أو من جانب المجتمع، وهي الصفة التي ميزت ألمانيا في القرن الذي سبق ، والآن أصبح من المحتوم البناء والتعمير من جديد، وهنا كما في كل النشاطات الأخرى كان أمراء الأقاليم من اوائل المسارعين إلى سد احتياجات البلد.

أما مكتبة وولفنبوتل التي أسسها يوليوس دوق برونز ويك فقد قدمها حفيده فرديك أولرك إلى جامعة هلمزدت. وأنشأ الدوق أغسطس مكانها مكتبة جديدة أفخم منها، فقد تلقى تعليما راقياً ولما نشبت الحرب عاش في إيتاكا Ithaca كما كان يسميها فقط ليجمع الكتب ويدرسها.

---

(١) Sum de bibliotheca quam Heidelberga Capta spolium fecit et Grogorio XV trophaueum misit Maximilianus dex bavariae.

ولما اعتلى العرش في سنة ١٦٣٥ شغل نفسه بالعمل على إنعاش حال مقاطعته ، وخص المكتبة الأوغسطينية Bibliotheca Augusta بوقت فراغه كله. وكان ينفق عليها سنويا ١٦ ألف تالر Thaler بحيث بلغ رصيدها عند موته ٢٨ ألف مجلد من بينها ٢٠٠٠ مخطوط مما حدا بالدوق إلى أن يفخر قائلا « إننا لم نجمع هذه المكتبة بالعناية البالغة والمال الكثير والجهد المتواصل فقط ، ولكن بوسائل متعددة لايمكن تصديقها استطعنا أن نجعلها على ما هي عليه من نظام حسن وترتيب جيد، من الصعب أن نجد لهما نظيرا في أوروبا كلها » ولقد كان هو نفسه أمين هذه المكتبة كتب فهارسها بخط يده، ولم يتبع في تصنيف مجموعته نظام الأقسام الكبيرة ثم الفروع الذي أوصى به نوديه، ولكنه قسم المجموعة على نظام أكسفورد إلى عشرين قسما مترابطة.

لقد كانت هناك عوامل أخرى ، غير تلك التي كانت متحكمة في برونزويك، وهي التي دفعت أرنست Ernest دوق غوتا (المتوفى ١٦٧٥) إلى أن يجند كل قواه لإعادة بناء دوقيته التي خربتها الحرب فأحسن تنظيمها من الناحية الإدارية . وعمل بجد لصالح الكنيسة والمدرسة بحيث لقب بالأمير بين المربين وبالمربي بين الأمراء، ولم يكن إنشاؤه للمكتبة سوى جزء من البرنامج التعليمي الذي هدف إليه. واشتملت المكتبة في البداية على الكتب القديمة فقط، ثم غنائم الحرب التي جلبها أرنست معه إلى الوطن من الغزوات التي اشترك فيها بالسويد، وأضيفت إلى المجموعات كتب أخرى عن طريق الشراء.

وتعتبر المكتبة التي أنشأها فردريك وليامز الأمير المنتخب الأعظم في برلين خير شاهد على النشاط الملكي إذ إنه « وسط عجيج المعركة وانتصارات الفرسان » أصدر الأوامر في سنة ١٦٥٩ من أرض جوتلاند jutland باتخاذ الخطوات الأولى، وتم افتتاح المكتبة بعد سنتين من سلام أوليفا peace Oliva الذي حقق به أمن بلاده . حقا لم يقع في يد الأمير مخطوطات ديرية كثيرة، ولم يخلف الأمراء الذين سبقوه أشياء ذات أهمية . ولكن بإشرافه الشخصي ، وتخصيص دخل ثابت لها ، وحث الناس على تقديم الهدايا استطاع فردريك أن يصل بمجموعة المكتبة الى ٢٠ ألف كتاب. مطبوع و١٦٠٠ مخطوط. وكان مدير المكتبة أستاذاً من فرانكفورت يدعى هندريتش Hendriech ، وهو الشخص الذي ظلت فهارسه التي أنشأها ونظام التصنيف الذي وضعه معمولا به أكثر من مائة عام، وقد وضعت المكتبة فى بداية إنشائها في جناح من القلعة خصص لها، وفتحت أبوابها للاستعمال العام. وبإختصار قبل موت الأمير أقيم بناء منفصل للمكتبة لم يتعد الدور الأرضي. لقد أغرق هندريتش فردريك وليام مدحاً وتقريظا بسبب مابذله في سبيل المكتبة، كما قال عنه دارس آخر بأسوب العصر الخطابي إنه حقق من المكرمات ما يضعه في مصاف حكام الإسكندرية وبرغاموم.